المسألة اليهودية والحل الصهيوني

ناهض زقوت

تأتي الذكرى الـ ٥٣ لنكبة الشعب الفلسطيني، ومازال جوهر القضية الفلسطينية يبحث له عن حلول في أروقة المؤتمرات، وورشات العمل، ومراكز البحث والدراسات. فالجوهر هم اللاجئون الذين شردوا من ديارهم عام ١٩٤٨، تمهيداً لإيجاد حل للمسألة اليهودية ـ الأوروبية. تلك التي خلقوا حلها على أنقاض شعب آخر، ومازالوا يكرسون نفي وجوده أو محاولة نفي وجوده بالبحث عن حل عادل لقضيته، ويتناسون أن الحل العادل هو عودتهم إلى ديارهم التي شردوا منها، وليس توطينهم في أماكن أخرى حتى ولو كانت على أرض فلسطين ١٩٦٧.

وهذه الذكرى هي الدافع لنبش الذاكرة عن المؤامرة الاستعمارية لحل المسألة اليهودية المؤرقة للمجتمع الغربي على حساب شعبنا العربي الفلسطيني.

إن كل مشكلة سياسية تتميز بشيء من التفرد والخصوصية وإلا لما أصبحت مشكلة سياسية، ولكن بينما يمكن حل معظم هذه المشاكل بمرور الزمن، أو على الأقل يمكن تحديد معالمها والاتفاق على طبيعتها، فإننا نلاحظ صعوبة كل هذا بالنسبة للمسألة اليهودية التي تظل من قرن إلى قرن تتحدى أي حل أو تعريف أو تحديد حتى خيل لأكثر الناس بأنها مشكلة أبدية ولا سبيل إلى إنهائها، ورغم قيام دولة إسرائيل على تلفيق حل هذه المسألة، إلا أنها بقيت تعاني من جدلية المراوحة في تحديد مصطلحات الوجود، من هو اليهودي ؟ ما هوية اليهودي ؟ ما علاقة يهود أوروبا وأمريكا بإسرائيل؟ وهل كل يهود العالم ينتمون إلى إسرائيل؟ ولكن الأهم بالنسبة لهذه الموضوعة هو وضعية إسرائيل اليهودية، ووجودها كمشكلة في وسط العالم العربي، وكمشكلة بالنسبة لعرب فلسطين من حيث قيامها على أراضيهم وممتلكاتهم، هذه الإشكاليات التي مازالت قائمة منذ تكوين إسرائيل، هي انعكاس للأزمة التاريخية في تحديد المسألة اليهودية عبر الفكر الأوروبي، حيث أن هذه المسألة في تكوينها مسألة أوروبية بحته، والمجتمع الأوروبي أصبح هو الباحث لها عن حلول للخلاص من اليهودي نفسه، وذلك قبل أن يبحث اليهودي نفسه عن خلاصه من عبودية المجتمع الأوروبي.

لقد شكل اليهود منذ البدايات الأولى للتاريخ البشري، وعبر تاريخهم الطويل كمشكلة دائمة في كل المجتمعات التي حلوا فيها، يقول الدكتور عبد المنعم الحفني تعليقاً على مشكلة اليهود في التاريخ :"إني لا أجد فترة من فترات التاريخ لم يظهر اليهود فيها كمشكلة، خذ التوراة، وهو كتاب يضم تقارير عن فترات من التاريخ، تبدأ من خلق آدم حتى قبل ظهور المسيح، والتوراة حافل بالقصص التي

تظهرهم كمشكلة لغيرهم من الشعوب القديمة : المصريين، والكنعانيين، والفلسطينيين، والعماليق، والمؤابيين، والبابليين، والفرس، والرومان، وبعض التاريخ الروماني والمسيحي .. حكايات حولهم كمشكلة سرعان ما تنتقل لعرب الجزيرة، وسرعان ما يظهرون أنفسهم كمشكلة للمسلمين، ويدور التاريخ دورة سريعة وتنتقل المشكلة لأوروبا، وتبرز في ألمانيا بالذات، ثم يدور التاريخ دورة لا تكاد تذكر، ولكنها تكفي ليظهروا على المسرح من جديد، كمشكلة ولكن في منطقة الشرق الأوسط "[١]

وكانت أغلب والمجتمعات التي ظهر اليهود بين ظهرانيهم وعلى مسرحهم يحاولون إيجاد حل لمشكلتهم عن طريق الحرب والقتال، حيث كانوا بغيضين لدى هذه الشعوب والمجتمعات، ويرجع ذلك إلى سلوكهم وتدخلاتهم المستمرة في شؤون الآخرين، وهذه الكراهية دفعتهم إلى العيش والتقوقع داخل مناطق مقصورة عليهم تسمى "حارة أو حي اليهود" أو حسب المصطلح الحديث "الجيتو"، وقد تمتعوا في هذا "الجيتو" بنوع من الاستقلال الذاتي، وتركت الحكومات شؤون الغيتو وسكانه لإدارة الحاخاميين الذين مارسوا سلطات واسعة، وقاسية أحياناً، في تصريف أمور رعيتهم على أسس من التمييز بين اليهود وغيرهم، فبالإضافة إلى الروادع الصارمة ضد الزواج بالأغيار، كانت هناك شريعة "الهازاكة" التي ميزت في الأعمال والتجارة، وحرمت انتقال الأملاك والعقارات إلى ملكية أو حيازة غير اليهود، وهي القاعدة الأساسية التي تبنتها الوكالة اليهودية في فلسطين، وقد ساهمت هذه الخلفية في صياغة عقلية الصهيونيين الذين ترعرع أكثرهم في ظل أحياء الجيتو في أوروبا الشرقية، وانتمى كثير من زعمائهم إلى عائلات حاخامية"[٢]

ونحن نناقش المسألة اليهودية في ضوء وجودها في المجتمعات الأوروبية، لا نتطرق كثيراً إلى وجودها في المجتمعات المختلفة، لأن المجتمع الأوروبي هو الذي أفرز المسألة اليهودية، (كما ذكرنا) وبين جدرانه نشأت الصهيونية وطرحت حلول المشكلة.

قبل ظهور الفكر الصهيوني الذي تمثل في تأسيس الحركة الصهيونية، كانت هناك كتابات وضعت حلولاً للمشكلة، فمن الكتاب الذين كتبوا حول المسألة اليهودية: كارل ماركس، جان بول سارتر، سيجموند فرويد، مارتن بوبر، ويل ديورانت، تشمبرلين[٣]، فيودور دوستيفسكي[٤]، فمنهم من رأى الحل في تخلي اليهودي عن ديانته واعتناق المسيحية وأديان الشعوب التي يحيون بينها، وآخرون رأوا أن الاندماج في المجتمعات القائمة هو الحل، وغيرهم رأوا أن المشكلة لها جوانب اقتصادية واجتماعية ونفسية وطبقية.

وكانت هناك أيضاً مدارس يهودية دينية تناولت المشكلة ولكنها اختلفت في تصوراتها حول حل المشكلة، فهناك مدرسة تدعو إلى انتظار المسيح المنتظر ليخلصهم مما هم فيه من ظلم واضطهاد،

وأخرى تتبنى مقولة الاندماج والذوبان في المجتمعات الأوروبية، وثالثة تنادي بالهجرة من المجتمعات المفعمة بمشاعر العداء للسامية إلى مجتمعات لا تسود فيها تلك المشاعر، ورابعة تدعو الجماعات اليهودية إلى الانخراط في الحركات الثورية باعتبار أن الثورة على الوضع القائم هي طريق النجاة، وخامسة تعتبر أن حل المسألة اليهودية لا يكون إلا عن طريق الدعوة القومية (وهي المدرسة الصهيونية).

تلك الكتابات وهذه المدارس تنادت بحل المسألة وتفكيكها داخل المجتمعات الأوروبية ـ ما عدا المدرسة الخامسة ـ ولكنها لم تبحث في السبب الحقيقي لظهور هذه المشكلة، باستثناء كتاب المسألة اليهودية لكارل ماركس، الذي تناول المسألة بشكل علمي وبدون تحيز، وربطها بالزمان والمكان مستخدماً المنهج الجدلي في التحليل[٥].

إن السبب وراء ظهور المسألة اليهودية في المجتمع الغربي هو الصراع الاقتصادي بين البرجوازية اليهودية المتحكمة في النشاط الاقتصادي وبين البرجوازية الأوروبية، وقد أدى هذا الصراع إلى انعكاس الوضع على غالبية اليهود وليس على الفئة الرأسمالية فقط، مما دفع الكثير من الكتاب إلى تصوير اليهودي بأنه جشع ومراب، وليس أدل على ذلك من تصوير شكسبير الرائع لوضعية اليهودي وعدوانيته الاستغلالية في "تاجر البندقية"، أو من تصوير تشارلز ديكينز في "أوليفر تويست"، أو تصوير مارلو لجشع اليهودي في "يهودي مالطا" . ويعلق الكاتب اليهودي "دويتشر" على ظاهرة العداء لليهود بقوله: إنني أعتقد أن الذي مكن اليهود من البقاء كطائفة منفصلة هو أنهم مثلوا اقتصاد السوق بين ظهراني شعب يعيش في اقتصاد طبيعي، كما اعتقد أن هذه الحقيقة بذكرياتها لدى الشعب كانت مسؤولة ولو جزئياً عن عدم المبالاة التي أبداها سكان أوروبا نحو إبادة اليهود، أو أنه كان من سوء حظ اليهود أنه عندما تحولت شعوب أوروبا ضد الرأسمالية فعلت هذا بسطحية كبيرة في النصف الأول من هذا القرن، وهي لم تهجر جوهر الرأسمالية وعلاقاتها الإنتاجية أو تنظيمها للمعيشة والعمل، وإنما هاجمت مظاهرها وزخارفها القديمة البالية والتي كانت في الغالب يهودية[٦].

لذلك كان الحقد والصدام مع اليهود في المجتمعات الغربية لأن الشعوب الأوروبية شعرت أن اليهود لا ينتمون إليهم بقدر ما ينتمون للمال والثروة، هنا ثاروا عليهم، كما حدث في إنجلترا عام ١٢٥٧ حين اجتاحت الثورة المدن الصناعية والتجارية المسيطر عليها اليهود، فنهب المتظاهرون بيوت اليهود ودمروا وأحرقوا حجج الملكية والكمبيالات، وكانت ثورة من لا يملكون ضد من يملكون[٧]، وهذا الأمر يدلنا على جوهر التمرد ضد اليهود أنه تمرد ضد الاستغلال والربا والمتاجرة بالمال .

وهكذا نجد أن سبب ظهور المشكلة اليهودية هو سبب اقتصادي بالدرجة الأولى وفي هذا الجو المشبع بالحقد والكره لليهودي ظهرت الصهيونية التي كانت نتيجة التحالفات الرأسمالية والاحتكارية، ولم تخرج من رحم الجيتو اليهودي مثل كل الثورات أو الحركات الشعبية، وقد نظرت للمسألة اليهودية من منظورات مختلفة ولم تحاول حلها من خلال تحسين أوضاع اليهود داخل المجتمعات وتحقيق المصالحة بحكم نفوذها داخل مراكز القوى والسلطة، إنما دفعتها روح المصلحة وتحقيق ازدياد للثروة، لذا سعت بتجميع اليهود وبث روح العنصرية فيهم، ودعتهم إلى الرحيل إلى أرض الميعاد، وكان هذا الحل في صالح الرأسمالية اليهودية أكثر من الفقراء اليهود، بهدف السعي نحو فتح أسواق جديدة لاستثماراتهم وتنمية مواردهم، وقد ساهمت الدول الأوروبية في الدفع نحو تطور الفكرة الصهيونية وبلورتها ومساندتها بالموقف السياسي ـ الاقتصادي ـ الاجتماعي، بهدف التخلص من اليهود، فتلك الدول كانت ترفض تماماً مسألة اندماج اليهود.

نشأة الحركة الصهيونية :

ظهرت الحركة الصهيونية أواخر القرن التاسع عشر، ولم يكن ظهورها وليد صدفة، إنما هي تراكم أفكار وكتابات وأراء سبقت ظهور الحركة. ففي هذا القرن ساد ميدان الفكر السياسي الأوروبي اتجاهان رئيسان كان لهما تأثير كبير على بلورة الأفكار اليهودية ـ الصهيونية: اتجاه يدعو إلى المساواة والأخوة الإنسانية بين الشعوب، وخلق عالم أفضل يعيش فيه البشر عائلة واحدة. أما الاتجاه الثاني فقد دعا إلى نقاء العرق والعنصر والتميز بين الشعوب. وقد "سارت في الاتجاه الأول المدرسة الليبرالية التي اجتذبت الأسر اليهودية المتنفذة وغالبية الطبقة المتوسطة اليهودية، وأيضاً المدرسة الاشتراكية التي اجتذبت غالبية الطبقة اليهودية الفقيرة، بينما آثرت أقلية من اليهود الانجراف وراء الاتجاه الثاني الذي رفض فكرة المساواة والتقدم وآمن بالعنصرية وتمايز الأعراق، والدعوة إلى الفصل والنقاء العنصري، وكان هذا الاتجاه منسجماً مع التقاليد الدينية القديمة السائدة بين اليهود" [٨]. والواقع أن اليهودية نفسها ضمت مثل هذين الاتجاهين المتعارضين، فقد خلقت الضغوط والنكبات السياسية وحالات الطرد والنفي التي ألمت باليهود منذ بدايات التاريخ، دافعاً لديهم للانتصار لفكرة الروح الانعزالية ونقاء العنصر.

وكانت هناك أيضاً الحركات اليهودية التي تمثل البذور الأولى للصهيونية منها: أحباء صهيون، بيلو، أيكا، عمال صهيوني، شباب صهيوني، البوند ... وغيرهم .

أما الكتابات اليهودية التي لعبت دوراً هاماً في بلورة الفكر والأيديولوجيا الصهيونية فكانت أولى الكتابات كتاب "البحث عن صهيون" الصادر عام ١٨٦١ للحاخام هيرش كاليشر (١٧٩٥ – ١٨٧٤)، وكتاب "روما والقدس" الصادر عام ١٨٦٢ لموسى هس (١٨١٢ – ١٨٧٥)، وكتاب "التحرر الذاتي" الصادر عام ١٨٨٢ لليون بينسكر (١٨٢١ – ١٨٩١) كما دعت تلك الكتابات إلى العودة إلى فلسطين، إن كل هذه الحركات والكتابات والأفكار دعت إلى خلق قومية يهودية وإيجاد شعب له كيانه الخاص وأرضه ويتميز بالنقاء العرقي، ولم تكن أيضاً الحركة الصهيونية بمتأى عن التيارات الفكرية والحضارية السائدة في أوروبا خاصة نمو الحركات القومية بين الشعوب الأوروبية، وتعاظم الحركة الاستعمارية الأوروبية حيث بلغت أوجها في أواخر القرن التاسع عشر باستعمار معظم أفريقيا وآسيا، يقول عبد الحكيم ذا النون : "نشأت الصهيونية وهي كما هو معروف الحركة القومية للتجمعات اليهودية الأوروبية، في ظروف معينة، تاريخية، اقتصادية، اجتماعية، فكرية، سياسية، برزت في أوروبا نفسها عندما بلغ التحرك الاستعماري الاستيطاني الأوروبي أقصى درجات اتساعه[٩] في وسط هذا الخضم الفكري والمد القومي والحقد على اليهود، ظهرت المنظمة الرئيسية للصهيونية اليهودية في نهاية القرن التاسع عشر، وعرفت باسم "المنظمة الصهيونية العالمية" وساهم في تأسيس ونشأة هذه المنظمة كبار الرأسماليين والماليين وأصحاب الاحتكارات العالمية الضخمة من اليهود، الذين كانوا في الأصل جزء من برجوازية البلاد التي يعيشون فيها، لذا سعوا إلى الاستقلال بذواتهم وثرواتهم، فكانوا من أشد المعارضين في مسألة الاندماج اليهودي في اقتصاديات المجتمع الغربي.

ما الصهيونية ؟

ظل اليهود قروناً طويلة لا تحتل فكرة العودة إلى "صهيون" من نفوسهم إلاّ كما يحتل أي حلم بعيد المنال، فقد ارتسمت هذه الفكرة في عقولهم عن طريق طقوسهم الدينية والصلاة في المعابد والتوسلات التي كانت تستعيدها في نفوسهم وتذكيها، ولم تكن هذه الفكرة تعبر عن حقيقة حية قائمة في نفوسهم وإنما كانت بمثابة التباكي على مجد باد وعهد انقضى واندثر، وأرض انقطعت بينها وبينهم الصلات، فلم تعد إلاّ ذكرى في مخيلتهم وترانيم تتلى، وآهات كنفس عن صدور كليمه لجسد بلى لا يمكن أن تبعث فيه الروح من جديد، وقد يكون اليهود الذين سيقوا إلى بابل سنة ٥٨٦ ق.م، هم أصحاب فكرة العودة إلى صهيون حيث وضعوا بذورها في صلواتهم ودعواتهم وأناشيدهم، ولكنها بقيت كالحلم المستحيل.

إلى أن جاءت الفكرة الصهيونية المتراكمة فكرياً عبر سنوات طويلة، لتعبر عن فقدان الأمل بقيام مجتمعات أوروبية تحررية عادلة ترفع الظلم عن اليهود، وتكون قادرة على استيعابهم اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وبقيت الصهيونية مع ذلك فكرة معزولة عن جماهير اليهود حتى عام ١٨٨١، عندما اضطرت أعداد ضخمة منهم إلى النزوح عن روسيا القيصرية على أثر المجازر التي وقعت ضدهم على أثر اغتيال القيصر الروسي "الكسندر الثاني"، وكان من نتائج هذه المذابح انهيار الحركة الاندماجية اليهودية لصالح الانفصال والتحرر المجتمعي، فقامت جمعيات تدعو إلى الاستيطان والهجرة إلى فلسطين، وقد انسجمت هذه الدعوة مع تطلعات ورغبات الدول الاستعمارية الكبرى في استخدام الجاليات اليهودية لأغراض استعمار الشعوب المتخلفة، ولاقت تلك الرغبات تشجيعاً من قبل الرأسماليين اليهود الذين كانوا يرغبون بتحويل سيل الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية إلى خارج أوروبا، لتجنب نتائج منافسة اليهود الوافدين للبرجوازية الصغيرة والمتوسطة في أوروبا الغربية، وعواقب البطالة في إثارة النعرات اللاسامية عند الطبقات الشعبية.

لقد خضع تعريف الصهيونية كفكرة وحركة لتعريفات متعددة منها السياسية والقومية والدينية والاستعمارية، وسوف نعرض لبعض منها لتوضح المخزون الفكري للحركة الصهيونية. ولكن نذكر بداية انتساب كلمة الصهيونية: فهي مصطلح توراتي يرجع إلى جبل صهيون، وهو جبل بجوار مدينة القدس، وقد ورد ذكره في التوراة أكثر من مرة : "وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض، وأخذ داود حصن صهيون، وهي مدينة داود"[١٠]، "أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي"[١١]، " لأن الرب قد اختار صهيون اشتهاها مسكناً له"[١٢].

أما لفظة الصهيونية بمدلولها السياسي الحديث، تعود إلى ما قبل ثلاثة أرباع القرن الماضي، فقد استعملها أول مرة ـ على ما يرجح ـ الصحافي والمفكر اليهودي النمساوي الأصل "ناثان بيرنباوم" (١٨٦٣ – ١٩٣٧) في كتابه الذي صدر باللغة الألمانية سنة ١٨٩٣ بعنوان "الإحياء القومي للشعب اليهودي في وطنه كوسيلة لحل المشكلة اليهودية"[١٣].

وحول تعريف الصهيونية يقول عمر رشدي : هي حركة سياسية تستمد أصولها من الفكر اليهودي النابع من عقائد التوراة وشرائع التلمود، كما تستمد حيويتها من ارتباط الفكر اليهودي بعقائد دينية وعنصرية ثابتة في أذهانهم، ومن ثم أصبحت الصهيونية حركة سياسية واضحة المعالم تقوم ـ كغيرها من الحركات السياسية ـ على أيديولوجية ثابتة[١٤].

وجاء في كتاب مصطلحات سياسية : أنها حركة قومية رجعية نشأت بين البرجوازية اليهودية في عدة بلدان في القرن التاسع عشر، تحت شعار توحيد جميع اليهود بصرف النظر عن وضعهم الطبقي"[١٥].

ويذكر الدكتور فايز صايغ :أنها الإيمان بالوحدة القومية لجميع اليهود[١٦]، وجاء في الميثاق الوطني الفلسطيني: أن الصهيونية حركة سياسية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالإمبريالية العالمية ومعادية لجميع حركات التحرر والتقدم في العالم[١٧].

إن هذه التعريفات نظرت للحركة الصهيونية من المنظور القومي السياسي المرتبط بالفكر الديني لدى اليهود، وعلاقة تلك الحركة بالاستعمار والرأسمالية، والذي مما لاشك فيه أن الصهيونية هي الإيمان بالوحدة القومية للشعب اليهودي الذين يتم تعريفهم على أساس السلالة المشتركة، ولكن وبعيداً عن طروحات التعريفات السابقة، وبحسب مبادئ الإيمان الصهيوني، لا الدين، ولا اللغة يشكلان الرابط القومي المزعوم بين اليهود، حيث أن الصهيونيين المؤمنين بالدين اليهودي والممارسين لتعاليمه هم في الواقع أقلية بينهم (وخير مثال تيودور هرتزل علماني) واللغة العبرية لم يتم إحياؤها إلاّ بعد ولادة الصهيونية، وتدل التشريعات وقرارات المحاكم والأدب السياسي للحركة الصهيونية، على أن السلالة ـ أي الحقيقة البيولوجية المحضة ـ المبنية على التحرر من يهود آخرين هي التي تجعل الشخص يهودياً في نظر الصهيونيين .

وبهذا نجد أن الحركة الصهيونية هي حركة سياسية قومية تستمد فكرها من عقائد التوراة وشرائع التلمود، دون الإيمان بهما، إنما هما وسيلة لتحقيق غاية أهمها تجميع اليهود حول الفكرة باستغلال الدين، ولكن الصهيونية كان ارتباطها الأساسي بالحركة الاستعمارية العالمية، وتساندها الرأسمالية اليهودية .

وتعتقد الصهيونية بضرورة تكوين مجتمع يهودي يحكم نفسه بنفسه في أرض الميعاد (فلسطين)، فما هي مرتكزاتها لتحقيق هذا الأمر ؟

ارتكزت الحركة الصهيونية في دعوتها على عنصرين أساسيين هما:

- عدم الاندماج .
- واللاسامية (الاضطهاد) .

لقد كثرت الدعوات اليهودية وغير اليهودية إلى اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية كحل لمشكلتهم ـ كما سبق ذكره ـ، ولكن الحركة الصهيونية اعتبرت الاندماج خيانة، إذ ذكر المؤرخ الصهيوني "سيمون دوبنوف" عام ١٩٠٦ : أن الاندماج خيانة عامة لراية الشعب اليهودي ومثله ..

الإنسان لا يستطيع أن يصير عضواً في جماعة طبيعية كالعائلة أو القبيلة أو الأمة، صحيح أنه قد يحصل على حقوق وامتيازات الرعوية في دولة أجنبية ولكن لا يستطيع الانتساب إليها أو إلى قوميتها[١٨]. ويضيف الصهيوني "يعقوب كلاتكن" عام ١٩٢١ بقوله : نحن لسنا يهوداً من ألمانيا أو إيرلندا ـ وإنما يهود فحسب، بلا قيد أو تحفظ، نحن ببساطة غرباء، شعب أجنبي بين ظهرانيكم، ونحن مصممون على أن نظل كذلك على الدوام، إذ يفصل بيننا برزخ واسع، واسع إلى حد أنه لا يمكن إقامة أي جسر عليه للعبور، إن روحكم غريبة، وأساطيركم وحكاياتكم وعاداتكم وعرفكم وتقاليدكم وتراثكم القومي، ومقدساتكم الدينية والوطنية وآحادكم وعطلاتكم، كلها غريبة علينا ومن يدعو أرض الغربة وطن الأجداد خائن للشعب اليهودي[١٩].

وهكذا رفضت الحركة الصهيونية فكرة الدمج ونظرت للمشكلة اليهودية على أنها تتجاوز حدود الزمان والمكان وهي لا ترتبط بنظام اجتماعي أو اقتصادي أو مجتمع ما بعينه، بل ترتبط بوجود اليهود أنفسهم في عالم لا ينتمون إليه، ولا يستطيعون أن يذوبوا في هذه المجتمعات، ومن هنا فليس هناك حل سوى العودة إلى أرض صهيون أرض الميعاد، وإقامة دولتهم النقية هناك حيث يستطيع الشعب اليهودي أن يحقق حياته اليهودية الحقيقية، فكيف السبيل إلى تجميع اليهود ؟ هنا كان سلاح الصهيونية الآخر، معاداة المجتمعات الأوروبية لليهود واضطهادهم، وهو ما عرف بمعاداة السامية.

اعتبرت الحركة الصهيونية أن اليهود ينتمون للجنس السامي، فارتكزت في دعوتها على الجنس ونقاء العنصر للشعب اليهودي، كما ارتكز هتلر في دعوته النازية العنصرية على الجنس الآري، لهذا فأي اضطهاد أو اعتداء على اليهود هو عداء للسامية، ولم تلق فرية في التاريخ نجاحاً كهذه الفرية، وإخفاء عنصريتهم، أو للجنس السامي، ونجح اليهود في خداع العالم بهذه الفرية، وإخفاء عنصريتهم، ومن المعلوم والبديهي لدى جميع علماء الأجناس البشرية، أن السامي لا يقتصر على اليهود بل على أمم وشعوب كثيرة أهمها "الأمة العربية" التي تشكل اليوم الجزء الأكبر من هذا الجنس السامي، والعجيب في أمر هذا السلاح هو أن "الذين استغلوه ورفعوه سيفاً مسلطاً فوق رؤوس البشر، ويحاربون كل من يقف في طريق أهدافهم هم من يهود الخزر الذين جاءوا من شرق أوروبا وجنوبها الشرقي ولا ينتمون للجنس السامي بصلة ولا يشكلون أي جزء من يهود العالم اليوم[٢٠].

أطلق مصطلح "السامية" في نهاية القرن الثامن عشر لدى العلماء الأوروبيين، وكان أول من استعمله هو العالم الألماني "شلوترز" وزميله "ايكهورن"، وذلك لأن الشعوب التي تتكلم اللغات السامية هي في الغالب ضمن ذرية سام بن نوح، وهو في العبرية "شام"، كما جاء في الفصل العاشر من سفر التكوين[٢١].

وكان العداء للسامية نزعة تغذيها البرجوازية الأوروبية والمصالح الرأسمالية للصهيونية العالمية، وتزرعها زرعاً واعياً كشكل متطرف من الشوفينية العنصرية . فقد توقع وتأمل الصهاينة أن "تصاعد معاداة السامية سيعزز النزعة القومية في نفوس اليهود ويدفعهم إلى بناء وطنهم الخاص بهم، وفي الوقت الذي شعر فيها الصهاينة في بريطانيا باليأس من حركتهم ولم يجدوا تأييداً يذكر، كتبت الصحيفة الناطقة بلسانهم "ذي زايونست" في تشرين الأول ١٩١٢ عن الموضوع وعبرت بأسى عن الفشل في العثور على أي منقذ للحركة فقالت: "أية قوة تستطيع أن تعطي هذه النتيجة ؟ بأية وسيلة يمكن تغيير روح الطوائف اليهودية في إنجلترا بحيث يخف عدد متزايد من أبنائها إلى الانضواء تحت لواء الصهيونية ؟ هناك وسيلة واحدة يمكن لها أن تجري هذا التغيير، ألا وهي معاداة السامية. وبعد ما يقرب من نصف قرن، أوردت صحيفة "يدشر كامبغر" اليهودية الصادرة في نيويورك في ١١ تموز ١٩٥٢، تقريراً يقول: إن بن غوريون صرح في أحد الاجتماعات بأنه لو كانت بيده السلطة لأرسل عددا من الشبان اليهود إلى بلدان الشتات ليتنكروا كمعادين للسامية ويضطهدوا اليهود هناك ويحملوهم على الهجرة إلى إسرائيل. (نستطيع أن نربط بين هذه الأفكار وبين ما حدث مع يهود العراق وكيفية تهجيرهم إلى إسرائيل) وقد أثار التقرير موجة من الاستياء اضطرت الزعيم الصهيوني إلى التنصل منه وإسناده إلى صهيوني آخر هو "ابرهام شتيرن"[٢٢]. وفي جريدة دافار الإسرائيلية كتب أرئيل شارون يقول : أستطيع أن أضمن أن معاداة السامية أكثر فعالية عشر مرات في جلب اليهود إلى إسرائيل بالمقارنة بآلاف الرسل والمبعوثين والندوات التي تصدر لزيارة الهجرة[٢٣].

وقد اعتبر معظم قادة الحركة الصهيونية أن عداء العالم لليهود كعنصر أساس هو عداء للصهيونية، بمعنى أن معاداة السامية تساوي معاداة الصهيونية، فيذكر هرتزل في مذكراته :"أنه يؤمن كلية بأن معاداة السامية تعتبر حركة بالغة الفائدة بالنسبة لتطوير الذاتية اليهودية، غير أن الصهيونيين، كما أشار هرتزل يقسمون معاداة السامية إلى معاداة شريفة وأخرى غير شريفة، ومعاداة السامية الشريفة والتي لها مبرراتها هي التي تنعكس في اضطهاد اليهود الكادحين ومطاردتهم، أما معاداة السامية المضرة والذميمة هي التي تنعكس في اضطهاد الصهيونيين ومطاردتهم، أي معاداة الصهيونية[٢٤].

وهكذا أصبح كل من يعادي الصهيونية هو معاد للسامية، حتى وإن كان يهودياً لا ينتمي للصهيونية، تلك هي منطلقاتهم التي قرروها في اجتماعهم الأول للحركة الصهيونية وتكوين المنظمة.

المؤتمر الصهيوني الأول وتكوين المنظمة الصهيونية العالمية:

في ٢٩ أغسطس/ آب[٢٥] عام ١٨٩٧ انعقد في مدينة بازل بسويسرا، أول مؤتمر للحركة الصهيونية، ودام ثلاثة أيام، وشهده أكثر من مائتي مندوب يمثلون سائر الهيئات اليهودية العالمية بزعامة الأب الروحي للصهيونية "تيودور هرتزل (١٨٦٠ – ١٩٠٤)، وقد حدد المؤتمر أهداف الصهيونية وتحركاتها على كل المستويات، وتحدث هرتزل أمام المؤتمر قائلاً:"إننا هنا لنضع حجر الأساس لبناء (الملجأ) الذي يأوي الشعب اليهودي، فإن العالم قد زودنا بما يسئ إلينا، وأن شعور التضامن الذي يسود بيننا والذي كثيراً ما رمانا به العالم بسخط في طريقه إلى الزوال حينما تصدى لنا التيار المعادي للسامية، فهذا التيار المعادي للسامية قد أمدنا بالقوة مرة أخرى، والصهيونية هي عودة اليهود إلى اليهودية حتى قبل عودتهم إلى الأرض اليهودية، وهي تحاول إيقاظ الشعب اليهودي في كل مكان لإنقاذ نفسه، فنحن يجب أن نخلق هنا ومنذ الآن أساساً، وأساساً ثابتاً لم يتوفر للشعب اليهودي حتى اليوم".

كانت الجهود اليهودية قبل عقد المؤتمر فردية ومبعثرة العناصر، وتفتقر إلى التنظيم الشامل، فقد كانت الشخصيات السياسية أو المنظمات المتناثرة في مناطق شتى لا تربط بينها وحدة واحدة سواء في الفكر أو الاتجاه أو الهدف، أي لم يكن لديها الخطة الواضحة أو الجهاز القادر على تنفيذ الخطة، ولم تلتق هذه الجهود كلها في حركة واحدة إلا عقب انعقاد المؤتمر الذي كان بمثابة المنقذ للحركة اليهودية من الاندثار والتقوقع.

وقد اتخذ المؤتمر الخطوات الأولى في خلق الأساس الثابت للشعب اليهودي وهو وضع فكرة الوطن للشعب اليهودي التي إلتفت حولها المؤتمرون، في هذا المؤتمر حدد هرتزل مطالب الحركة اليهودية الصهيونية التي قد صاغها بشكل أو بآخر في كتابه الدولة اليهودية، ومن خلال طرحه لمواقفه المعلنة في المؤتمر، يكون قد تجاوز ما جاء في طروحات وأراء هس وبينسكر في المسألة اليهودية، إذ قرر أن المسألة اليهودية ليست مسألة اجتماعية أو دينية بل هي مسألة قومية لا يمكن حلها إلا عن طريق تحويلها إلى قضية سياسية عالمية تتم تسويتها على يد الدول الكبرى مجتمعة، بمعنى أن يمنح اليهود السيادة فوق رقعة من الأرض كافية لتلبية متطلبات إقامة دولة قومية على أن يترك الباقي لليهود أنفسهم.

كما وضع المؤتمر البرنامج الصهيوني للعمل، والذي عرف باسم "برنامج بال" وفيه حددت الأهداف الصهيونية ووسائل تحقيقها، فقد جاء في ديباجة البرنامج :"إن غاية الصهيونية هي خلق وطن

للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام، وأن المؤتمر يرى في الوسائل التالية الطريق إلى تحقيق هذه الغاية:

- العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة.
- تنظيم اليهودية العالمية وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد.
- تقوية الشعور والوعي القومي اليهودي وتغذيته.
- اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية[٢٦]

وقد أعلن في هذا المؤتمر عن إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية، بالإضافة إلى أجهزتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكذلك تأسيس ثلاث مؤسسات مالية تابعة لها، وهي:

- صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار.
- الصندوق القومي اليهودي.
- الصندوق التأسيسي لفلسطين.

وبدأت هذه المؤسسات في شراء الأراضي، ومد خيوطها وشباكها للاستيطان في فلسطين وإنشاء المستعمرات بها لتوطين المهاجرين اليهود، تمهيداً للاستيلاء عليها.

إن الصهيونية اليهودية التي رسمها هرتزل في المؤتمر الأول، تركزت على دعامات ثلاث تمثلت في استعمار فلسطين من خلال شراء الأراضي من العرب، والهجرة اليهودية، والدخول في معترك السياسة الدولية لكسب عطف الدول الكبرى وتأييدها من أجل خلق وطن يهودي.

وقد كتب هرتزل في مذكراته معلقاً على مؤتمر بازل بقوله :"لو أردت أن اختصر مؤتمر بازل في كلمة واحدة ـ هذا ما لن أفعله صراحة ـ لقلت: في بازل أسست الدولة الصهيونية، ولو قلت ذلك اليوم لقابلني العالم بالسخرية والضحك، ولكن بعد خمس سنوات على وجه الاحتمال، وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد، سيرى هذه الدولة جميع الناس"[٢٧]. وقد تحققت نبوءة هرتزل، إذ أعلنت الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ قرار التقسيم الذي يقضي بإنشاء دولة يهودية على أرض فلسطين، بعد خمسين عاماً بالتمام والكمال، أي تفاؤل هذا ؟ وأية مؤامرة تلك ؟ إن قيام إسرائيل لتستوعب يهود العالم وتحل المسألة اليهودية المؤرقة لهذا العالم، فقد أثبتت الوقائع والدلائل أن قيام إسرائيل لم يفكك المسألة اليهودية من وسط المجتمعات الأوروبية، إلا لينقل تناقضات تلك المسألة إلى داخل المجتمع اليهودي غير المتجانس.

وقد أدى قيام إسرائيل وفق مؤامرة دولية إلى خلق المسألة الفلسطينية فالعالم اليوم لم يعد يعرف يهوداً مضطهدين، ولكن هناك يهوداً عنصريين وحركة يهودية صهيونية عنصرية، وعرباً فلسطينيين مضطهدين وشعباً مشرداً وأراض محتلة. هنا تكشف أن المفهوم الصهيوني للحل النهائي للمشكلة اليهودية قد جاء على حساب شعب آخر، يتوافق تماما مع المفهوم النازي لحل المسألة اليهودية، وهو القضاء على العنصر البشري غير المرغوب فيه وتصفيته نهائيا، من هنا عمدت المنظمات الصهيونية المسلحة إلى تصفية الشعب الفلسطيني سواء بالترحيل أو المذابح عام ١٩٤٨. وقد أكدت المؤتمرات الدولية والعربية على الصفة العنصرية للصهيونية وأنها حركة عدوانية توسيعية معارضة لكل المثل العليا البشرية وخطراً دائماً على السلم العالمي.

كاتب وباحث ، مدير عام المركز القومي للدراسات والتوثيق

المراجـــــع والهوامـــــش

١ – د. عبد المنعم الحفني : عالم بلا يهود . دار الرشاد. الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٩٢ .ص٦.

٢ – الموسوعة الفلسطينية : الجزء الثالث (مادة العنصرية والصهيونية) ص٣٤٨.

٣ – للاطلاع على أراء هؤلاء الكتاب، أنظر كتاب عالم بلا يهود. مرجع سابق.

٤ – راجع. المسألة اليهودية شهادة دوستويفسكي عن اليهود الروس. مجلة أدب ونقد. العدد ٦٩. مايو ١٩٩١. القاهرة. ص١١.

٥ – راجع. كارل ماركس: حول المسألة اليهودية. ترجمة ومراجعة: حمزة برقاوي. الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق ١٩٨٩.

٦ – الصهيونية والعنصرية: منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الجزء الثاني. بيروت. ص٤٩.

٧ – عالم بلا يهود. مرجع سابق. ص١١.

٨ – الموسوعة الفلسطينية: مرجع سابق. ص٣٤٨.

٩ – عبد الحكيم ذا النون: تاريخ فلسطين القديم والخلفية الزائفة للصهيونية. دار الكتاب العربي. الطبعة الأولى. دمشق ١٩٨٤. ص٩.

١٠ – التوراة: صموئيل الثاني ٥ .

١١ – التوراة: المزامير ٢.

١٢ – التوراة: المزامير ١٣٢، وانظر أيضاً المزامير ٩،١٠٢ . واشعيا ٢،٣،٤٠.

١٣ – القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني. منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. ص٥٧.

١٤ - عمر رشدي: الصهيونية وربيبتها إسرائيل. مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٦٥. ص٢٢.

١٥ – سعد رحمي (ترجمة): مصطلحات سياسية. دار الثقافة الجديدة. القاهرة ص ٩٧.

١٦ – الدكتور فايز صايغ: الاستعمار الصهيوني في فلسطين، ترجمة عبد الوهاب كيالي. مركز الأبحاث في م.ت.ف. بيروت ١٩٦٥.

١٧ – المادة ٢٢ من الميثاق الوطني الفلسطيني. الصادر عن منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤.

١٨ – محمد أحمد رمضان: العلاقة الخاصة الشاذة بين النازية والصهيونية. مجلة الكاتب. العدد ١٥٣، القاهرة، ديسمبر ١٩٧٣. ص٩١.

١٩ – المرجع السابق. ص ٩٢.

٢٠ – عبد الله التل: خطر اليهودية العالمية. مطابع دار القلم. القاهرة. ص ١٧٣

٢١ – د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. مكتبة الشباب. القاهرة ١٩٨٨ ص ٢٩.

٢٢ – خالد القشطيني: تكوين الصهيونية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٨٦ ص١٢٩-١٣٠.

٢٣ – يفجيني يفسييف: الفاشية في ظل النجمة السداسية. دار الثقافة الجديدة. القاهرة. ص٤٠.

٢٤ – المرجع السابق. ص٣٩.

٢٥ – ٢٩ أغسطس هو نفس اليوم الذي تشرد فيه اليهود من فلسطين نهائياً وحرق فيه هيكلهم عام ٧٠م.

٢٦ – السيد ياسين والدكتور على الدين هلال (إشراف): الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ١٨٨٢-١٩٤٨. الجزء الأول. معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٥. ص٢٨٨.

٢٧ – نقلاً عن: الاستعمار الصهيوني في فلسطين. مرجع سابق. ص١٠.

This document was created with Win2PDF available at http://www.daneprairie.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.